معرفة الله عن طريق معرفة الوجود

◄لقد قسّم ابن سينا في كتابه "الإشارات" مضمون هذه الآية الثانية إلى قسمين: القسم الأوّل قوله: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) (فصلت/ 53)، فيقول فيه ما حاصله: أنّها تعني انّنا سنهتدي من وجود آيات الله في الكون والأنفس إلى وجود الله، فهو ينطوي على البرهان "الإنّي" وهو الاستدلال بوجود المعلول على وجود العلة كما نستدل بنزول المطر وصوت الرعد والبرق على وجود السحب الداكنة. انّ هناك طائفة من الآيات القرآنية ناظرة إلى هذا البرهان، وإليك الآيات المذكورة: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (النّور/ 35). (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصّلت/ 53). وها نحن نذكر البرهان على الطريقة السينائية: حاصل البرهان: إنّ الموجود ينقسم بحسب المفهوم إلى واجب وممكن، والممكن لذاته لا يترجّح وجوده على عدمه، فلابدّ له من مرجّح من خارج، وإلّا ترجحه بذاته، فكان ترجّحه واجباً بذاته، فكان واجب الوجود بذاته وقد فرض ممكناً، وكذا في جانب العدم فكان ممتنعاً فرض ممكناً وهذا خلف، فواجب الوجود لابدّ من وجوده. وبما

أنّ الموجودات حاصلة فإن كان شيء منها واجباً فقد وقع الاعتراف بالواجب، وإلّا وقع الانتهاء إليه لبطلان ذهاب السلسلة إلى غير نهاية، وبطلان عودها إلى بدئها لكونه مستلزماً للدور وهو باطل لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وذلك ضروري البطلان فلم يبق إلا الانتهاء إلى الواجب لذاته وهو المطلوب، وهذا المسلك أقرب المسالك إلى منهج الصدّيقين. وأمّا تفصيل البرهان: 1- لا ريب انّ وراء ذهننا، وتصوّراتنا وجوداً خارجياً، وواقعاً غير قابل للإنكار وإنّ ما يتصوّره الإنسان من الصور الذهنية لها مصاديق خارجية ووجوداً عينياً على صعيد الخارج، وهذا على خلاف ما يتصوره السوفسطائيون من قصر الوجود والواقعية على مجرد (الصور الذهنية)، وانّه ليس وراء ذهننا أي شيء، وأيّة واقعية، بل هو خيال في خيال. 2- الوجود في أي مرتبة من المراتب لا يخلو إمّا أن يكون واجباً أو يكون ممكناً. وبتعبير آخر: إمّا أن يكون له ضرورة الوجود ويكون وجوده نابعاً من ذاته ونفسه، أو لا يكون كذلك بل يكون وجوده من غيره، ولا شق ثالث لهما. 3- كلّ شيء ليس وجوده من ذاته ومن نفسه، فإنّه محتاج في تحقّقه ووجوده إلى "علة" تمنحه الوجود. وهذا الأمر، أعني: احتياج الممكن إلى العلة من الأُمور البديهية التي لا يشك فيها من له أدنى حظ من العقل. 4- الممكنات لا يمكن أن توجد من سلسلة لا تنتهي من العلل والمعلولات، لأنّ ذلك يستلزم "التسلسل". كما أنّه لا يمكن أن يؤثر كل من الممكنين في الآخر دون واسطة، أو مع الواسطة فيؤثر كلّ في الآخر، ويعطي كلّ واحد منها الوجود للآخر، لأنّه نتيجة ذلك هو الدور، والدور والتسلسل من المحالات العقلية. هذه هي الأُسس والقواعد التي يقيم عليها ابن سينا برهانه المذكور: "برهان الصدّيقين". وإليك صورة البرهان: لو أمكن أن يشك أحد منّا في شيء، فإنّه لا يمكنه أن يشك أبداً في أنّ هناك – خارج أذهاننا – واقعاً موجوداً وعالماً كائناً قائماً. ثمّ إنّه لا ريب أنّ هذه الموجودات من سماء وأرض وإنسان أو أي شيء آخر موجود، أمّا أن يكون وجودها من لدن نفسها بحيث لا تحتاج في تحققها على صعيد الوجود الخارجي إلى غيرها، بمعنى أنّه لا تكون معلولة لشيء، بل يكون وجودها نابعاً من ذاتها، أو تكون على خلاف هذا الفرض. أمّا في الصورة الأُولى فنكون قد اعترفنا بوجود "موجود واجب" يكون وجوده نابعاً من ذاته غير آت من غيره...، موجود يكون علة دون أن يكون معلولاً لشيء، وغنياً غير فقير، لا يكون وجوده مكتسباً من شيء أو أحد سواه. وأمّا في الصورة الثانية التي يكون وجود الأشياء مفاضاً عليها من غيرها فنحن نسأل عن ذلك "الغير" هل وجوده نابع من ذاته ونفسه، أي أنّه واجب الوجود؟ فإن كان كذلك ففي هذه الحالة نكون قد اعترفنا بوجود موجود واجب يسمّى في منطق الإلهيين بـ ا. وأمّا إذا كان هذا الموجود الثاني على نمط الموجود الأوّل في كون وجوده غير نابع من ذاته، وإنّما هو مكتسب من غيره ففي هذه الصورة ننقل السؤال إلى الموجود الثالث ونطرح عليه ما طرحناه

على الثاني، وهكذا. وهذه السلسلة إمّا أن تتوقف عند نقطة معينة، أي عند موجود يكون علة غير معلول ويكون وجوده نابعاً من ذاته لا من غيره فهو المطلوب. وإمّا إذا لم تتوقف هذه السلسلة من العلل والمعاليل عند حد معين في نقطة معينة فـ: أي بحيث لا ينفك عنها الوجود ولا تنفك هي عن الوجود، فعندئذ اعترفنا بأنّ في العالم واجب الوجود. إمّا أن تمضي إلى غير نهاية بحيث يكون كلّ واحد من هذه الممكنات قد اكتسب الوجود من سابقه فحينئذ يلزم أن يكون العالم سلسلة غير متناهية من العلل والمعاليل، ومجموعة من الممكنات دون أن تنتهي إلى موجود واجب الوجود، وهذا هو "التسلسل" الذي سنثبت بطلانه بالأدلة القاطعة والبراهين المحكمة. وأمّا أن يعود بأن يكون الواقع في المرتبة المتقدمة متأثراً من الواقع في المرتبة المتأخرة، وذلك هو "الدور" الذي ثبت بطلانه أيضاً. المصدر: مجلة الرباحين/ العدد 67 لسنة 1432هـ